الفصل الخامس

حرية المرأة فى فكر الإمام محمد عبده

إذا كان إصلاح المجتمع وإقامة دعائمه على المساواة بين الحقوق والواجبات بين ركنى المجتمع ودعامتيه الأساسيتين (المرأة والرجل) كان الحديث عن موضوع الحريات والحقوق مكملا لصلاح المجتمع، خاصة أن الإسلام أشرك الرجل والمرأة فى الحقوق والتكاليف الدينية والدنيوية.

تحدث الإمام عن الحرية فى أكثر من مجال، ففى رسالة التوحيد كتب عن حرية الاختيار والحكم فى أعمال الإنسان، وعلاقتها بالقضاء والقدر، وفى المجال السياسى كتب عن الحرية السياسية وأشكالها وضوابطها ونشر هذا فى مقالاته بالوقائع المصرية وفى المنهج الاجتماعى ساهم فى إعداد كتاب تحرير المرأة لقاسم أمين، ومن الناحية المنهجية لم يغرق الإمام فى تعريفات الحرية، ولكنه اهتم بطرق الموضوعات ووضع المقومات التى ترتبط بها الحرية فى أشكالها المختلفة أى ركز على مكونات ومضامين الحرية[1].

لم يقف الأستاذ الإمام موقفا سطحيا من مشاكل المرأة، وإنما شخص الداء، وحدد أن العلة كامنة فى الفهم الخاطئ لموقف الشريعة من علاقة الرجل بالمرأة ومن العلاقات الأسرية، ومن سيادة ذلك التطبيق الذى يحسبه الناس إسلاما أو مستمدا من الإسلام، بينما هو غريب كل الغربة

عـن حقيقة تعاليم الإسـلام.. فهو يرى أن نظـرة الرجل إلى المرأة، كما هى فى الواقع، وكمـا تحددها بعض القوانين التى تنظم علاقتها، إنما تعـد عودة إلى ذلك الموقف الجاهلى الذى جاء الإسـلام فحرر المرأة منه وأعطاها من الحقوق مثل ما للرجال، فيقول: (لقد كان الناس، لجهلهم بوجوه المصالح الاجتماعية على كمالها، لا يرون للنسـاء شأنا فى صلاح حياتهم الاجتماعية وفسـادها، حتى علمهم الوحى ذلك. ولكن الناس لا يأخذون من الوحى فى كل زمان إلا بقدر استعدادهم، وأن ما جاء به القـرآن من الأحكام لإصلاح حال البيوت - (العائلات)، وذلك بحسـن معاملة النسـاء لم تعمل به الأمة على وجة الكمال، بل نسـيت معظمه فى هذا الزمان، وعادت إلى جهالة الجاهلية)[٢]، (ومن تدبر هذه الآيات وفهم هذه الأحكام يتجلى له نسبة مسلمى هذا العصر إلى القرآن، ومبلغ حظهم من الإسلام..)[٣].

وأشـار إلى نظرة الغرب للمرأة المسلمة حيث يقول: (وقد صار هؤلاء الإفرنج الذين قصرت مدنيتهم عن شريعتنا فى إعلاء شأن النساء يفخرون علينا، بل يرموننا بالهمجية فى معاملة النسـاء ويزعم الجاهلون منهم بالإسـلام أن ما نحن عليه هو أثر ديننا. إن أحد السائحين من الإفرنج زارنى فى الأزهر وبينما نحن ماران فى المسجد رأى الإفرنجى بنتا مارة فيـه، فبهـت وقال: ما هذا؟ أنثى تدخل الجامـع!!! فقلت له: وما وجه الغرابة فى ذلك؟ قال: إننا نعتقد أن الإسـلام قرر أن النساء ليس لهن أرواح، وليس عليهن عبادة!! فبينت له غلطه وفسـرت له بعض الآيات فيهن. فانظـروا كيف صرنا حجة على ديننا؟ وإلى جهل هؤلاء

الناس بالإسلام حتى مثل هذا الرجل الذى هو رئيس لجمعية كبيرة، فما بالكم بعامتهم؟!.)[4].

عندما نادى الإمام بحرية الإرادة لم يخص بها الذكور فقط بل الذكور والإناث، وذلك لأن الله خصهم بالعقل وميزهم بالفكر، ودعا الله الجميع لفهم ما فى الأكوان والانتفاع بها ولكن فى حدود الشريعة والفضيلة.

يقول الإمام: (ودعا الناس أجمعين ذكورا وإناثا عامة وسادات إلى عرفان أنفسهم، وأنهم من نوع خصه الله بالعقل وميزه بالفكر، وشرفه بهما وبحرية الإرادة فيما يرشده إليه عقله وفكره، وأن الله عرض عليهم جميع ما فى أيديهم من الأكوان وسلطهم على فهمها والانتفاع بها بدون شرط ولا قيد إلا الاعتدال والوقوف عند حدود الشريعة العادلة والفضيلة الكاملة)[5].

وضع الإمام حدودا وضوابط للحرية سواء للرجل أو المرأة حتى لا تكون الحرية وبالا وشرا على الأمة، حيث يقول: (ولكل من هذه الحقوق الثلاثة حد – أى حرية الرأى، وحرية القول، وحرية الانتخاب – ولو تعداه لكانت الحرية فيه شرا من القيد وأشنع من العبودية، فحد حرية الرأى أن يكون مبنيا على القياس، موافقا للحكمة، مطابقا للصواب، وحد حرية القول أن يراد به الخير، ولا يجاوز فيه حد المنفعة والملايمة، ولا يمس شرفا مصونا، ولا يضر بريئا أمينا ولا ينشر غير علم يقين، وحد حرية الانتخاب أن يراد به مصلحة الوطن العزيز ليس إلا)[6].

أيضا أشار قاسم أمين إلى أن الدين الإسلامى يرفع من مكانة المرأة ويدعو إلى حرية المرأة، ويعطيها من الحقوق مالم تنلها المرأة الغربية

إلا فى هذا القرن فقط، حيث يقول: (ليس فى أحكام الديانة الإسلامية ولا فيما ترمى إليه من مقاصدها ما يمكن أن ينسب إليه انحطاط المرأة.. فالمطلع على الشريعة الإسلامية يعلم أن تحرير المرأة هو من أنفس الأصول التى يحق لها أن تفخر به على سواها لأنها منحت المرأة منذ اثنى عشر قرنا مضت الحقوق التى تنالها المرأة الغربية إلا فى هذا القرن، ومن ثم لو كان لدين ما سلطة وتأثير على العوائد لكانت المرأة المسلمة اليوم فى مقدم الأرض)[٧].

كما أشار قاسم أمين إلى أننا لا نرى المرأة عندنا من الاستعداد الطبيعى ما يؤهلها لأن تكون مساوية لغيرها فى الأمم الأخرى، لكنها اليوم فى حالة انحطاط شديد وليس لذلك سبب آخر غير كوننا جردناها من العقل والشعور وهضمنا حقوقها المقررة لها وبخسناها قيمتها[٨].

❑❑❑

١- حرية الرأى والحرية السياسية:

اشتمل منهج الإمام محمد عبده الإصلاحى على الشمولية والمساواة بين المرأة والرجل فى نيل الحريات سواء حرية الرأى، أو حرية القول، أو حرية المواطنة وغيرها، واعتبرها حقا مشروعا يجب النضال من أجل الوصول إلى تلك الحريات والعيش تحت ظلال الحرية.

يقول الإمام: (فعلى من يدرك كمال الأمة بتمامها أن يعيش ذلك بكمال كل فرد منها، ويسلك فى تكميل العموم عين الطريق التى يسلكها لتكميل الواحد)[٩].

أشـرك الإمام المرأة مع الرجل فى الحرية السياسـية وفى وجوب الحصول عليها واعتبرها حقا فطريا يلزم الحصول عليه، حيث ذهب إلى أن للوجود الإنسـانى فى هذه الحيـاة الدنيا ثلاثة أدوار متوالية، يأخذ بعضها بأطراف بعض:

الأول: دور الفطرة وهو الوجود الطبيعى.

الثانى: دور الاجتماع وهو الحالة المدنية.

الثالث: دور السياسـة، فالمرء يوجد سـاذجا فطريـا يلتمس الغذاء والمبيت وسـائر الحاجات الطبيعية مما تصل يد إمكانه إليه، ثم يدفعه الحـرص على الذات إلى حفظ النـوع، وتلجئه كثرة الحاجات إلى طلب الإعانـة فيتألف ويجتمع فيصير مدنيا، ثـم يتقدم فى المرتبة فينظر فى شـئون نفسه ويهتم بأحوال جنسه، فيصير سياسيا، وهو الإنسان المدنى الكامل الحقوق والواجبات[١].

اعتـبر الإمام محمد عبده أن الإنسـان المدنى الكامـل من يكتمل له الحصول على الأدوار الثلاثة السـابقة، وأن السياسـة والتمتع بحريتها والحصـول على كافة حقوقهـا هى مرتبة الكمال الفطـرى الذى أودعه الله فى الوجود الإنسـانى، وجعل الوصول إليه آخر الأدوار الإنسانية، فالفطرة السليمة توجب على الإنسان أن يكون حرا وأن ينتمى إلى وطنه ويتمتع بما سماه الأدب السياسى.

يقول الإمام محمد عبده: (إن هذه الحياة توجب للوطنى أن يكون حرا فى رأيه متصرفا فى شأنه إلى حد أن لا يضر بالهيئة المجتمعة ولا يمس شأن سـواه، فهذه الحرية على شـرطها المذكور تقتضى العلم بالمصلحة

العمومية والحدود الشخصية وهو ما يعبر عنه بالأدب السياسى، ووجه الضرورة فى معرفة هذا الأدب أن المرء إذا عرف مصلحة قومية سعى فيما يوجب لها البقاء والنماء، وإذا رأى حدود إخوانه أقام لنفسه حدا لا يتعداه وخطا لا يتخطاه، بخلاف إذا ما جهل ذلك فإنه لا يأمن حينئذ أن يظهر بما يخالف تلك المصلحة ويفسد هذه الحدود، فتكون حريته ضررا بأوطانه، ووبالا على إخوانه)[11].

يركز الإمام محمد عبده على أهمية معرفة الحدود الشخصية والمصلحة العمومية والتى سماها بالأدب السياسى الواجب توافره فى أفراد القوم لتحقق المصلحة ودرء المفسدة، حتى لا تكون الحرية المطلوبة وبالا على الأمة وهذا تأكيد من الإمام على وجوب التزام مصلحة الجماعة بذكورهم وإناثهم فالخطاب عام يعبر عنه بالمرء الوطنى، مما يؤكد مساواة الخطاب للمرأة والرجل على السواء حتى يتحقق الحصول على الأدب السياسى لكافة أفراده.

يقول الإمام: (فإذا حصل هذا الأدب الوطنى السياسى وكان مع ذلك نبيل النفس، طاهر النية، صادق النسبة، قادرا على إيثار المصلحة العمومية، فله حينئذ (حينئذ فقط) ما لسائر أهل الحياة السياسية، وهى حقوق كريمة مقدسة لا ينبغى أن يمسها إلا المطهرون من درن الدنيئات: حرية الرأى وحرية القول وحرية الانتخاب)[12].

ويؤكد الإمام محمد عبده أنه مهما بلغت الأمة من مبالغ السياسة فلابد لها من تحديد الهدف الذى ترجو الوصول إليه وذلك هو ما يؤدى إلى التقدم والارتقاء.

يقول الإمام: (ومهما بلغت الأمة من مبالغ السياسة، وكثر عدد أفرادها المتأدبين بذلك الأدب، فلن يكون لها نماء ولا بقاء فى الحياة السياسية مـا لم تكن ذات وجهـة معلومة، ووحدة لا تقبل النزاع والخلاف، يدل على ذلك تقدم الذين اتحدت وجهتهم، وتأخر الذين تفرقت كلمتهم من قبلنا وفى هذه الأيام)[١٣].

ويرى الإمام أن الوصول إلى الحرية السياسـية بعد الأدب السياسـى يتفاوت بتفاوت الجهد، ولبلوغ الدرجة العليا لابد من صعود سائر الدرج والمراحل، يقول الإمام: (فأنت فى أول درجة من مرقاة السياسـة، وفى أول مرحلـة من طريـق الحرية فلن تبلغ الدرجـة العليا إلا إذا صعدت سـائر الدرج، ولن تدرك الغاية القصوى ما لم تقطع سـائر المراحل، فإن حاولـت غير ذلك لا تأمن الهبوط من الدرجـة التى بلغت، والرجوع إلى المرحلة التى وصلت. بل ربما صرت على مسـافة أعوام مما كنت ترجو إدراكه بأيام)[١٤].

فالوصول إلى الحقوق السياسية يتطلب جهدا وبذلا للنفس من أجله يقـول الإمام فى ذلك: (وليس الأدب مما يؤخذ بالمكاشـفة، أو يحصل بالسليقة أو يعرف بالبداهة، بل لابد فى تحصيله من الطلب والاجتهاد وحسـن الاقتداء ودقـة النظر والتبصر فى أحـوال الناس من قبل وفى الحال)[١٥].

لكن الأدب السياسـى لا يتحقق فى نفوس الأفـراد كافة لكن هناك اختلافا بينهم كما يقول الإمام: (الأدب السياسى لا يحصل لأفراد الأمة كلهـم أجمعين، ولا يكون فى الذين يحصلونه سـواء بمقدار واحد لأنه

مـن الملكات الصناعية العلمية، والملكة لا تحصل إلا بتكرار العمل، وإن حصلت فإنها تختلف استحكاما وكمالا بحسب اختلاف القابلية والتفرغ فى الناس)[١٦].

□□□

٢- حرية المرأة فى اختيار الزوج:

مـن الحريـات التى دعا إليهـا الإمام محمد عبده حريـة المرأة فى اختيار الزوج ويسـتدل[١٧] على ذلك بقول الله سـبحانه: ﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾[١٨].

والآيـة ﴿ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ ﴾ هـى حكم جديد غير الأحكام السـابقة هو تحريـم العضل أى (منع المرأة مـن الزواج)، وقد كان مـن عـادات الجاهلية أن يتحكم الرجال فى تزويج النسـاء، إذ لم يكـن يزوج المـرأة إلا وليها فقد يزوجها بمن تكـره ويمنعها ممن تحب لمحض الهوى. وقال المفسرون: إن الرجال المطلقين كانوا يفعلون ذلك، فيتحكـم الرجل بمطلقته فيمنعها أن تتزوج أنفـة وكبرا أن يرى امرأته تحت غيره، فكان يصد عنها الأزواج بضروب من الصد والمنع، كما كان يراجعها فى آخر العدة لأجل العضل. وقد أثبت الإسلام الولاية للأقربين وحـرم العضل، وهو المنع من الزواج، وأن يزوج الولى المرأة بدون إذنها، فجمع بين المصلحتين[١٩].

واستدل بما ورد فى سبب نزول الآية فى الصحيح: أخرج البخارى وأصحاب السنن وغيرهم بأسانيد شتى من حديث «معقل بن يسار» قال: (كان لى أخت . فأتانى ابن عم لى فأنكحتها إياه، فكانت عنده ما كانت. ثم طلقها تطليقة ولم يراجعها حتى انقضت العدة. فهويها وهويته، ثم خطبها مع الخطاب، فقلت له: يالكع، أكرمتك بها وزوجتكها فطلقتها ثم جئت تخطبها؟! والله لا ترجع إليك أبدا، وكان رجلا لا بأس به، وكانت المرأة تريد أن ترجع إليه، فعلم الله حاجته إليها وحاجتها إلى بعلها فأنزل الله هذه الآية (قال): ففى نزلت، فكفرت عن يمينى وأنكحتها إياه. وفى لفظ: فلما سمعها معقل قال: سمعا لربى وطاعة. ثم دعاه فقال: أزوجك وأكرمك. وذلك أن النبى (صلى الله عليه وسلم) دعاه فتلا عليه الآية)[٢٠].

ويكمل الإمام محمد عبده تفسير قول الله تعالى: ﴿إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾: أى إذا تراضى مريدو التزوج من الرجال والنساء بأن رضى كل من الرجل والمرأة بالآخر زوجا. وقوله «بينهم» يشعر بأن لا نكر فى أن يخطب الرجل المرأة إلى نفسها ويتفق معها على التزوج بها، ويحرم حينئذ عضلها، أى امتناع الولى أن يزوجها منه، إذا كان ذلك التراضى فى الخطبة بالمعروف شرعا وعادة، بأن لا يكون هناك محرم ولا شىء يخل بالمروءة ويلحق العار بالمرأة وأهلها، وقد استدل الفقهاء بهذا على أن العضل من غير الكفء غير محرم كأن تريد الشريفة فى قومها أن تتزوج برجل خسيس يلحقها منه الغضاضة، ويمس ما لقومها من الشرف والكرامة، فينبغى أن تصرف عنه بالوعظ والنصيحة. ويجوز بعض الفقهاء العضل إذا كان المهر دون المثل[٢١].

ويوضح الإمام محمد عبده رأيه فى ذلك فيقول: (وعندى أنه إذا أرادت المرأة أن تتزوج بأقل من مهر مثلها، ولم يكن الحامل على ذلك فساد الأخلاق المسقط للكرامة أو اتباع الهوى وإرضاء الشهوة بل كان ميلا إلى رجل مستقيم يرجى منه حسن العشرة وصلاح المعيشة إلا أنه يعسر عليه دفع مهر كثير مع نفقات الزواج الأخرى، فلا يجوز حينئذ العضل بل يجب تزويجه)[٢٢].

ويستطرد الإمام محمد عبده ويقول قول الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾[٢٣] ويصرح أن الآية تدل على أن الإيمان الصحيح يقتضى العمل، وقد غفل عن هذا الأكثرون، وقرره الأئمة المحققون، كأنه يقول: من كان مؤمنا فلا شك أنه يتعظ بهذا. يشير إلى أن من لم يتعظ ويعمل بها فليس بمؤمن. وتدل على أن أحكام الدين حتى المعاملات منها ينبغى أن تساق إلى الناس مساق الوعظ المحرك للقلوب، لا أن تسرد سردا جافا كما ترى فى كتب الفقه[٢٤].

ثم يستطرد الإمام ويفسر قول الله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ﴾ فيقول: (الزكاة النماء والبركة فى الشىء، والمشار إليه فى «ذلكم» هو النهى عن عضل النساء بقيده وشرطه، والمراد أنه مزيد فى نماء متبعيه وصلاح حالهم ما بعده مزيد ينضله، وأنه أطهر لأعراضهم وأنسابهم، وأحفظ لشرفهم وأحسابهم، لأن عضل النساء والتضييق عليهن مدعاة لفسوقهن، ومفسدة لأخلاقهن، وسبب لفساد نظام البيوت وشقاء الذرارى. وذلك مثل حال امرأة كأخت «معقل بن يسار».. مثل أيضا ولى يمنع موليته من الزواج بمن تحب ويزوجها ممن تكره اتباعا لهواه، أو

عـادة قومه، كما كانت العرب تفعـل. وانظر أترجو أن يصلح حالهما، ويقيما حدود الله بينهما؟ أم يخشـى أن يغويها الشيطان بالآخر ويغويه بها، ويسـتدرجها فى الغواية فلا يقفان إلا عند نهاية حدودها؟ وهكذا مثل كل مخالفة لهذه الأحكام تجدها مفسدة)[٢٥].

أما الآية ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ فيفسـرها الإمام محمد عبده (أى يعلم سبحانه ما لكم فى ذلك من الزكاة والطهر وسائر المصالح ودفع المفاسـد. وأنتم لا تعلمون ذلك كله علما صحيحا خاليا من الأهواء والأوهـام، واعتزاز الرجـال بقدرتهم على التحكم فى النسـاء، ولذلك ذكرهم فى أثر النهى فى عضل النساء عن الزواج بهذه الثلاث:

١ – أنها موعظة يتعظ بها من يؤمن بالله واليوم الآخر.

٢ – أنها أزكى لكم وأطهر لأعراضكم.

٣ – أن الله يعلم كل ذلك كغيره وأنتم لا تعلمون.

وهذه آيات علمه ظاهرة، فإن البشـر من جميع الأمم، لا من العرب وحدهـم، لم يهتـدوا إلى هذه الأحـكام المنزلة فى هذه السـورة النافعة باختبارهـم الطويل، بل عزبت حكمتها عن نفوس الأكثرين بعد أن نزل الوحـى بها فلم يعملوا بها، وكان يجب علـى المؤمن الذكى أن يقيمها علـى وجهها ملاحظا فوائدهـا، وعلى المؤمن الغبى أن يسـلم أمر ربه تسـليما، وإن لم تظهر له فائدتها فى الدنيا، اكتفاء بأن الله تعالى يعلم من ذلك ما لا يعلم هو)[٢٦].

وأشـار الإمـام محمد عبده إلى أنـه قد كان النـاس لجهلهم بوجوه المصالح الاجتماعية على كمالها، لا يرون للنساء شأنا فى صلاح حياتهم

الاجتماعية وفسادها، حتى علمهم الوحى ذلك ولكن الناس لا يأخذون من الوحى فى كل زمان إلا بقدر استعدادهم، وأن ما جاء به القرآن من الأحكام لإصلاح حال البيوت بحسن معاملة النساء لم تعمل به الأمة على وجه الكمال، بل نسيت معظمه فى هذا الزمان وعادت إلى جهالة الجاهلية[٢٧].

ولهذا الجهل السابق ولتوهم الذين يسيئون معاملة النساء من الرجال أنهم يفعلون ما هو مصلحة لهم ومحافظة على شرفهم، ختم هذه المواعظ والأحكام والحكم بقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[٢٨].

أكد الإمام محمد عبده أن شريعتنا السمحاء منحت النساء حقوقا لا تنقص عن حقوق الرجل فى الزواج، لها الحق مثله فى أن تتأكد بنفسها من إمكان تحقيق آمالها، وما علينا إلا أن نسمع صوت شريعتنا، ونتبع أحكام القرآن الكريم وما صح من سُنة النبى (صلى الله عليه وسلم)، وأعمال الصحابة لتتم لها السعادة فى الزواج[٢٩].

واستشهد الإمام بما جاء فى الكتاب العزيز: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾[٣٠]، وكان ابن عباس يقول، اتباعا لهذه الآية الكريمة: (إنى أحب أن أتزين لامرأتى كما أحب أن تتزين لى). وقال تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾[٣١]، وقال فى تعظيم حقهن: ﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾[٣٢]، وجاء عن النبى (صلى الله عليه وسلم): «أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا وألطفهم بأهله»[٣٣].. وكان النبى (صلى الله عليه وسلم) يحب النساء، كما ورد فى الحديث: «حبب إلى من دنياكم ثلاث: النساء، والطيب، وجعلت قرة عينى فى الصلاة»[٣٤]،

وكان يحترم النساء احتراما برهن للعالم على حسن خلقه، حتى إنه كان يضع ركبته على الأرض لتضع زوجته عليها رجلها إذا أرادت أن تركب الناقة، وكان يتنازل إلى ملاعبتهن وممازحتهن حتى روى أنه كان يسابق عائشة (رضى الله عنها) فسبقته يوما وسبقها فى بعض الأيام فقال: «وهذه بتلك»، وكان يرأف بالنساء، والأحاديث فى هذا الموضوع كثيرة، كلها تدل على أن الدين الإسلامى يحث على اعتبار المرأة واحترام حقها ومعاملتها بالإحسان والمعروف[٣٥].

ويرجع الإمام السبب لما هو عليه حال المرأة فى عصره إلى الجهل فالزوج لا يكون – كما هو الآن – إلا شكلا من الأشكال العديدة التى يستبد بها الرجل على المرأة.. أما إذا تعلمت المرأة حقوقها، وشعرت بقيمة نفسها، عند ذلك يكون الزواج الواسطة الطبيعية لتحقيق سعادة الرجل والمرأة معا، عند ذلك تؤسس الزوجية على انجذاب شخصين يحب أحدهما الآخر حبا تاما بحسهما وقلبهما وعقلهما، عند ذلك تعيش المرأة تحت حكم عقلها فتنتخب من بين الرجال من تحبه وتميل إليه وترتبط به بعقد الزواج، ويعرف أهلها أن فى كمال عقلها ما يكفى لحسن اختيارها، فيكونون معها على اتفاق فى الرأى، فلا تخشى غضبهم ولا انتقاد الناس عليهم، عند ذلك يعرف الرجال قيمة النساء، ويذوقون لذة الحب الحقيقى[٣٦].

ويذهب الإمام إلى أن الحب المتبادل هو أساس العلاقة الزوجية ويقول فى ذلك: (انظر إلى زوجين متحابين، تجدهما من اليوم فى نعيم الجنة.. ماذا يهمهما أن يكون الصندوق خاليا من المال، أو أن يكون

على المائدة عدس وبصل، أما يكفيهما فرح القلب فى كل دقيقة تمر من اليوم.. هذا الفرح الذى يبعث النشـاط فى الجسم والطمأنينة فى النفس ويحيـى فى القلب شـعورا بلذة الحياة ويزينها لـه ويخفف ثقلها عليه ويجعلهـا منه فى كل مكان الرضى، حتـى قال عمر بن الخطاب: «ما أعطى العبد بعد الإيمان خيرا من امرأة صالحة»[٣٧].

إن كل رجـل يقصـد من الـزواج أن تكون له صاحبة تشـاركه فى السـراء والضراء يصعب عليه، بل قد يتعذر أن يبلغ ما يريد من ذلك، (ولهذا السـبب رأينا فى هذه السنين الأخيرة كثيرا من الشبان القادرين علـى الـزواج لا يرغبون فيه، ولما كان عدد الرجـال المهذبين يزداد فى كل سـنة - لأن الشـعور بوجوب تربية البنين تقدم وسيتقدم كثيرا فى المستقبل - صارت تربية المرأة على مبدأ التعليم والحرية أمرا ضروريا لا يستغنى عنه، وإلا فما علينا إلا أن الثقة بالزواج قد فقدت، وأن المعاملة به قد بطلت، وحق عليه الإفلاس)[٣٨].

وإذا كانت الأسـرة عماد المجتمع، فقد اتجه الإمام إلى إصلاح نظام الأسـرة المصريـة[٣٩] فحدثنا عن حاجة الإنسـان إلى الـزواج قائلا: (لما كان من لوازم حفظ النوع الإنسـانى، المعرض للفناء والزوال، التناسـل والتوالد، أودع الحق سـبحانه فى طبيعة الإنسان قوة شهوية تدعوه إلى الاقتران وتحمله على طلب الازدواج، كسائر أنواع الحيوانات)[٤٠]. (كما أباحت الشريعة الزواج بأربعة من النسوة وجواز مفارقتهن بالطلاق، مع بيان ما كان عليه السلف الصالح فى معاشرتهن والعدل بينهن، وحصول ضـد المقصود أن يكـون الزواج موجبا للعدوات وتفريق الشـمل بدلا من

المحبــة وجمع الكلمة كما أوجبته الشــريعة، وليس لنا غرض من ذلك سوى تبيين الحق وتوضيح الصراط المستقيم)[٤١].

اتجــه الإمام محمد عبده فى توضيح حاجة المــرء إلى الزواج اتجاها عقليا يخاطب عقل الإنســان لا غرائزه فليس الزواج متعة جســدية دون المتعــة العقلية والهدوء النفســى والاســتقرار، لذلك يدعــو الإمام الزوج إلى إعمــال عقله وإطلاق العنان لفكره فــى البحث عن معنى الزواج فى الشــريعة الإســلامية وهو بذلك يطبــق منهجه العلمى الــذى بنى عليه منهجه الإصلاحى عامة[٤٢].

انتقــد الإمام تعريف الزواج عنــد الفقهاء الذين جعلوا الزواج مقتصرا على المتعة الجســدية والتمتع بالشهوة، وأغفلوا القيم الروحية والمعنوية فيه، مما رســخ فى الأذهان عند العامة أن الزواج لا يعنى ســوى قضاء الشهوة الجسدية إذ عرفه الفقهاء بأنه (عقد يملك به الرجل بضع المرأة) وغاب عن تعريفهم وصف القرآن الكريم بأنه سكن من المخاوف والهموم، يقوم على أساس المودة والرحمة بين الزوجين قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾[٤٣].

حيث يقول الإمام محمد عبده: (وقد رأيت فى القرآن الشريف كلاما ينطبــق على الزواج ويصح أن يكون تعريفا له، ولا أعلم أن شــريعة من شرائع الأمم التى وصلت إلى أقصى درجات التمدن جاءت بأحسن منه، ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾[٤٤]، [٤٥].

فالذى يقارن بين تعريف القرآن وتعريف أولئك الفقهاء يدرك بنفسه مدى تساهلهم فى تعريف رباط الزوجية؛ إذ غاب عن هذا التعريف الواجبات الأدبية والشرعية لكلا الزوجين، وغابت عنه القيمة الروحية والنفسية لرباط الزوجية، وإن دل هذا على شىء فإنما يدل على غياب العقل عن مفهوم الزواج، والاقتصار على الجانب الغريزى عند الرجل وحسب، الأمر الذى أضعف إحساسه بمسئوليته تجاه الأسرة التى يقيمها عندما يرتبط بالمرأة ومدى قدسية هذا الرباط، يقول الإمام: (إن الزوجية أقوى رابطة تربط اثنين من البشر أحدهما بالآخر فهى الصلة التى بها يشعر كل من الزوجين بأنه شريك الآخر فى كل شىء مادى ومعنوى، حتى إن كل واحد منهما يؤاخذ الآخر على دقائق خطرات الحب، وخفايا خلجات القلب، يستشفها من وراء الحجب، أو توحيها إليه حركات الأجفان، أو يستنبطها من فلتات اللسان)[٤٦].

ويوضح الإمام أن الذى يقارن بين التعريف الأول الذى فاض من علم الفقهاء علينا والتعريف الثانى الذى نزل من عند الله يرى بنفسه إلى أى درجة وصل انحطاط المرأة فى رأى فقهائنا وسرى منهم إلى عامة المسلمين، ولا يستغرب بعد ذلك أن يرى المنزلة الوضيعة التى سقط إليها الزواج حيث صار عقدا غايته أن يتمتع الرجل بجسم المرأة ليتلذذ به، وتبع ذلك ما تبعه من الأحكام الفرعية التى رتبوها على هذا الأصل الشنيع[٤٧].

ثم يقول الإمام عن الزواج: (فهذا النظام الجميل الذى جعل الله أساسه المودة والرحمة بين الزوجين تحول أمره بفضل علمائنا الواسع إلى أن

يكون اليوم آلة استمتاع فى يد الرجل، وجرى العمل على إهمال كل ما من شأنه أن يوجد المودة والرحمة وعلى التمسك بكل ما يخل بهما)[٤٨].

حيث يقول الإمام: (ولا يختلف اثنان فى أن الزواج الذى يبنى على هذا التوافق يكون أمرا محترما فى نفوس الزوجين، وتكون عقدته من المتانة بحيث لا يسهل انحلالها، ويكون أيضا موجبا للعفة والتصون، وعنده أن كل زواج لا يؤسس على هذا الائتلاف فهو صفقة خاسرة لا خير فيها لأحد من الزوجين، مهما طال أجل الزواج... ولما كان الزواج لا يراعى فيه اليوم الشرط، كانت الرابطة بين الزوجين واهية العقد، تنحل لأول عرض يطرأ عليها، وأغلب ما يكون من ذلك لا سبب له إلا رغبة كل منهما فى الخروج من قيد لا يرى وجها للمحافظة عليه، والتنصل من أمر لا قيمة له فى نفسه)[٤٩].

ومن وجهة نظر الإمام أنه (قد أفسد على الناس تلك المودة والرحمة. وحجبهم عن الموعظة بالحكمة، وأضعف فى نفوس الأزواج ذلك السكون والارتياح، غرور الرجال بالقوة وطغيانهم بالغنى، وكفران النساء لنعمة الرجال وحفظ سيئاتهم، وتماديهن فى الذم لها والتبرم بها، وما مضت به عادات الجاهلية فى بعض المتقدمين وعادات التفرنج فى المعاصرات والمعاصرين، وقلد به النساء بعضهم بعضا، والله سبحانه وتعالى ذكرنا، أولا بنعمته علينا فى أنفسنا لتزيح عن الفطرة السليمة ما غشيها بسوء القدوة واتباع الهوى، ونشكرها له سبحانه بالمحافظة عليها بتمكين صلة الزوجية واحترامها وتوثيقها، وثانيا بهذا الدين القويم الذى هدانا إلى ذلك)[٥٠].

فظهر من ذلك أن سعادة الإنسان فى معيشته، بل صيانة وجوده فى هذه الدار، موقوفة على تقييد تلك الشهوة بقانون يضبط استعمالها، ويضرب لها حدودا يقف كل شخص عندها، وتوجب الاختصاص بين الزوج والزوجة، فيمتنع التعدى، ثم يظهر منه التعلق الخصوصى بين كل شخص وزوجته وكل زوجة وبعلها، فيسعى كل لخير من اختص به، حيث إن سعيه لكل البشر غير ممكن... وقد أتت الشرائع المنزلة بما يكفل هذا الأمر.. وأمرت الطرفين بحسن المعاشرة، ونهت عن ارتكاب أى أمر يخل بنظام الاجتماع المنزلى، الذى لا تتم سعادة العائلة إلا برعاية حرمته، والمحافظة على حقوقه، كالقيام بواجبات وحاجات كل واحد من أفرادها، وحسن الاقتصاد فى المعيشة، وأن ينظر كل واحد إلى مصلحة العائلة نظرة إلى مصلحته الخصوصية. وبعبارة أظهر ليس عنده أمر يعد مصلحة إلا إذا كان يوجب لعائلته الثروة والتقدم، وينقلها من حطة الشقاء إلى درجات السعادة والهناء[٥١].

فنتبين من ذلك كما يرى الإمام محمد عبده أن الشهوة الحيوية المغروسة فى الإنسان لم تكن مقصودة لذاتها، بل هى آلة لنيل الإنسان مآربه التى لا تستطيع القام بدونها، كبقائه فى عالم الوجود، يتعاون على جلب المنافع ودفع المكروه بزوجته وأولاده، وأخيه وعمه ونحو ذلك ممن اربتط معه بالرابط المعروف بصلة النسب والقرابة، الذى يعد من أقوى الروابط الإنسانية التى لولاها لاختل نظام الوجود الإنسانى بالمرة، كما هو ظاهر، ولما كان التعاون على المصالح المعاشية، والاتحاد والتآلف، وجمع الكلمة من ثمرات الزواج..[٥٢].

استنادا إلى مقولة الإمام بأن الأمة تحتاج إلى إصلاح من داخلها، وإلى مقولته بأن العقل يستطيع أن يميز بين الخطأ والصواب فى الأمور الدنيوية، وأن الإسلام يحض على الاجتهاد ويدفع إلى التطور، ذهب قاسم أمين، وفتحى زغلول ومحمد حسين هيكل وطه حسين وعباس محمود العقاد وغيرهم إلى الحديث عن نهضة الأمم الأوربية وضرورة الأخذ عنها وإلى إعادة النظر فى التراث بقبول الصالح للعصر وترك ما لا يصلح له[٥٣].

فى مقدمة هؤلاء المصلحين يأتى قاسم أمين بجهده الكبير فى الدعوة إلى حرية المرأة مستندا إلى أقوال أستاذه الإمام عن الرفاهية الاجتماعية، ومصلحة الجماعة. ولكن دعوته لتحرير المرأة فى كتابه «تحرير المرأة» كانت تحمل خلفها دعوة أشمل، هى افتقار المجتمع الشرقى إلى العلم الحديث وشيوع الاستبداد السياسى فيه. ومن ثم اتجه فى كتابه الآخر «المرأة الجديدة» إلى التأكيد على أهمية التطور القائم على العلوم الحديثة والقدرة البشرية المتحررة، ومن خلال نظام قائم على الحرية السياسية. فى ذلك لم يعد قاسم أمين يستند إلى القرآن أو الشريعة أو الأسلوب الذى كان يتحدث به فى «تحرير المرأة»، وإنما إلى أفكار العلم والفلسفات الاجتماعية الغربية وأصبح التقدم لديه لا يقوم على العبادات والغيبيات وإنما على المكتشفات العلمية التى توصل إليها الإنسان، وأصبحت العقيدة واحدة من عدة وسائل يمكن عن طريقها تحقيق التقدم[٥٤].

أكد قاسم أمين الإقرار بمبدأ التطور فى العلاقات الاجتماعية، مما جعله يقول إن بقاء المجتمع لا يعتمد على الأخلاق أو الدين وحسب بل

على استعداد المجتمع أيضا لتقبل قوانين التطور؛ حيث يقول: (لا ريب أن المرأة اليوم أحط من الرجل فى الجملة، ولكن علينا أن ننظر هل هذه الحال طبيعة لها أو ناشئة من طرق تربيتها، تلك هى المسألة التى يلزمنا لحلها أن نرجع إلى الأصول العلمية لنعلم ما تقرره فيها. رأى العلماء أنه لا يصح الحكم على طبيعة المرأة ومبلغ سعادتها للكمال الإنسانى بآثارها التى صدرت منها إلى الآن، وإنما يصح ذلك بعد أن تسلك من حريتها ما يملك الرجل وبعد أن تشتغل بتثقيف عقلها مدة من الزمن تساوى المدة التى قضاها الرجل فى تربية ملكاتهم العقلية والأدبية)[٥٥].

كما بذل المفكر قاسم أمين[٥٦] الذى يحتل فى تاريخنا الفكرى المعاصر مكانة بارزة ويكفى أننا لا نذكر حركة تحرير المرأة العربية إلا ونذكر معها كتابى «المرأة الجديدة» و«تحرير المرأة» والكتابان من تأليف قاسم أمين، لقد بذل قاسم أمين جهدا كبيرا فى مجال الدفاع عن تحرير المرأة، واستطاع أن يضع بصماته الواضحة والبارزة فى ميدان الدفاع عن تحرير المرأة والدعوة إلى تحررها من القيود والأغلال والعادات والتقاليد البالية[٥٧].

ويستعرض قاسم أمين تاريخ حياة المرأة فى العالم يتكشف لنا أن المرأة عاشت حرة فى العصور الأولى، حيث كانت الإنسانية لم تزل فى مهدها، ثم بعد تشكيل العائلة وقعت فى الاستعباد الحقيقى، ثم لما قامت الإنسانية على طريق المدنية تغيرت الصورة، صورة هذا الرق، واعترف للمرأة بشىء من الحق، وإن خضعت لاستبداد الرجل الذى قضى عليها بأن لا تتمتع بالحقوق التى اعترف لها بها، ثم لما بلغت

الإنسانية مبلغها من المدنية نالت المرأة حريتها التامة وتساوت المرأة بالرجل فى جميع الحقوق أو على الأقل فى معظمها[٥٨].

ويرى قاسم أمين أن: (المرأة المصرية هى اليوم فى الدور الثالث من حياتها التاريخية، بمعنى أنها فى نظر الشرع إنسان حر له حقوق وعليه واجبات، ولكنها فى نظر العائلة وفى معاملتها لها ليست بحرة، بل محرومة من التمتع بحقوقها الشرعية. وهذه الحالة التى عليها المرأة اليوم هى من توابع الاستبداد السياسى الذى يخضعها وتخضع له)[٥٩].

وهذا يوضح أن قاسم أمين سار على نهج أستاذه محمد عبده فى الدفاع عن حقوق المرأة وضرورة الاهتمام بها كإنسانة حرة محترمة لها حقوق وعليها واجبات، وأن العلم ضرورة يرفع من شأنها ويجعلها أمًّا وزوجة صالحة تعمل مع زوجها على بناء أسرة سعيدة فى مجتمع متحضر.

❑❑❑

٣- نماذج من الريادات النسائية اللاتى حررهن الإسلام منذ عهد النبوة:

تعتبر وسطية الإسلام فى تحرير المرأة وإنصافها نموذجا يباهى الدنيا بنماذج الريادات النسائية اللاتى حررهن الإسلام منذ عصر النبوة وحتى العصر الذى نعيش فيه .. ويدعو هذا النموذج إلى اتخاذ هذه النماذج الريادية أسوة وقدوة ومثلا. منها نبدأ جهاد التحرير للمرأة فى عصرنا الحديث.[٦٠]

• فخديجة بنت خويلد (٦٨-٣ق هـ / ٥٥٦ - ٦٢٠م) (رضى الله

عنها) نموذج من نماذج الثمرات الطيبة لهذا التحرير الإسلامى للمرأة... به كانت أسبق من كل الرجال إلى الإيمان بالدعوة الإسلامية الجديدة والوليدة .. وبه كانت الداعمة – بالعقل والحكمة والمال وأيضا بالعواطف المعطاءة – لرسول الإسلام، ودعوته وأمته.. حتى كان عام وفاتها «عام الحزن» والحداد للجماعة المؤمنة كلها[٦١].

• وأسماء بنت أبى بكر الصديق (٢٧ق هـ – ٧٣هـ / ٥٩٧ – ٦٩٢م) (رضى الله عنهما) كانت نموذجا من نماذج ثمرات هذا التحرير .. تحمل أمانة سر خطة الهجرة النبوية من مكة إلى المدينة (١هـ – ٦٢٢م) وهى من أخطر التحولات فى تاريخ الدعوة والدولة والأمة؛ وتشارك فى تنفيذ هذا الحدث الأعظم؛ وتشد أزر زوجها البطل الزبير بن العوام (٢٨ق هـ – ٣٦هـ / ٥٩٦ – ٦٥٦م) فتهيىء له بيته؛ وتزرع له حقله؛ وترعى فرس جهاده وقتاله؛ وتقاتل معه فى بعض الغزوات، وتربى ولده عبد الله بن الزبير (١ – ٧٣هـ / ٦٢٢ – ٦٩٢م) على البطولة والفداء والاستشهاد؛ وتعارض وتجابه الطغاة من أمثال الحجاج بن يوسف الثقفى (٤٠ – ٩٥هـ / ٦٦٠ – ٧١٤م).. ومع كل ذلك تظل أسماء هذه هى الأنثى التى تتزيا بالحشمة الإسلامية والشرقية، فلا تلبس ما يكشف أو يشف، وتحافظ على مشاعر الغيرة المفرطة عند زوجها[٦٢].

• والشفاء بنت عبد الله القرشية العدوية (توفيت فى ٢٠هـ – ٦٤٠م) (رضى الله عنها) كانت ثمرة من ثمرات هذا النموذج الإسلامى لتحرير النساء. سبقت إلى الإسلام؛ وبايعت على الدخول فيه وفى أمته ودولته؛ وتميزت بالعقل والرأى والحكمة؛ واشتغلت بتعليم القراءة

والكتابة حتى كانت معلمة لحفصة أم المؤمنين؛ وروت أحاديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم).. وكانت تحاوره؛ وأحيانا تلومه فيعتذر إليها (صلى الله عليه وسلم)، وبلغت - فى المشاركة فى السلطة والدولة - أن ولاها عمر بن الخطاب «ولاية الحسبة» أى «وزارة» التجارات والأسواق وأوزانها ومعاملاتها.. تراقب وتحاسب وتفصل بين التجار وأهل السوق، من الرجال والنساء[٦٣].

• وأم هانئ بنت أبى طالب (توفيت فى ٤٠هـ - ٦٦١م) (رضى الله عنها) كانت من ثمرات هذا النموذج فى تحرير النساء.. أسلمت عام الفتح (٨ هـ - ٦٢٩م)، ومع أن زوجها قد فر بشركه إلى نجران يوم الفتح، فلقد أجارت - أى أعطت الأمان - لرجلين من قومه كانا مطلوبين للقصاص الإسلامى، ووقفت - لذلك - فى وجه أخيها على بن أبى طالب الذى هم بتنفيذ القصاص فيهما فصارعته حماية لمن أجارت حتى لم يستطع منها فكاكا؛ واستجاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لعهدها ولإجارتها قائلا: «قد أجرنا من أجرت، وأمنا من أمنت يا أم هانئ.. لكن لا تغضبى علينا، فإن الله يغضب لغضبه..!» فأطلقت أخاها فداعبه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قائلا: «يا على غلبتك امرأة!»[٦٤].

ولقد بلغ هذا التحرير الإسلامى بأم هانئ الذروة أن خطبها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لنفسه زوجا وأما للمؤمنين بعد أن فرق الإسلام بينها وبين زوجها المشرك، فاعتذرت عن خطبة الرسول - بأدب جم وحكمة بالغة - وقالت: يا رسول الله لأنت أحب إلى من سمعى

وبصرى، وحق الزوج عظيم، فأخشى إن أقبلت على ولدى أن أضيع حق الزوج. فقبل المصطفى (صلى الله عليه وسلم) اعتذارها واحترم رغبتها فى التفرغ لأولادها.. صنع ذلك وهو القائد المنتصر فى لحظات الفتح الأكبر والانتصار الأعظم التى يستبيح فى مثلها الفاتحون كل الحدود والسدود. غالب الرسول المنتصر عواطفه الإنسانية، واحترم حرية أم هانئ، وأثنى عليها وعلى ما تمثل من منظومة للقيم[٦٥].

• وعائشة بنت أبى بكر الصديق (٩ق هـ ٥٨هـ - ٦١٣م - ٦٧٨م) زوج النبى (صلى الله عليه وسلم) وأم المؤمنين (رضى الله عنها)، كانت الزوجة الرقيقة الحبيبة؛ وراوية الأحاديث وحافظة السنة؛ والفقيهة التى تراجع القراء والرواة والفقهاء والمجتهدين؛ والمشيرة فى الشئون العامة؛ والمتذوقة للفنون التى تعرضها فرقة فنية - من الأحباش - فى مسجد النبوة والممارسة لرياضة الجرى مع زوجها (صلى الله عليه وسلم) أثناء السفر إلى الغزو والجهاد[٦٦].

• وحفصة بنت عمر بن الخطاب زوج الرسول وأم المؤمنين (١٨ق هـ - ٤٥هـ / ٦٠٤ - ٦٦٥م) (رضى الله عنهما)، سبقت إلى الإسلام بمكة وهاجرت بدينها إلى المدينة المنورة؛ وكانت شاعرة وخطيبة فصيحة وراوية للحديث؛ وائتمنتها الأمة على حفظ القرآن عندما جمع المسلمون صحائفه على عهد أبى بكر الصديق فحفظته حتى أسلمته إلى الخليفة عثمان بن عفان، فنسخت منه المصاحف التى وزعت على الأمصار، وشاركت بالرأى فى تدبير شورى الأمة بعد استشهاد أبيها الفاروق، وورثته نثرا وشعرا وخطبت فى الناس بمناقب أبى بكر وعمر، وتحدثت

عن سُـنة الإسـلام فى الاختيار الشـورى للخلفاء والبيعة التعاقدية بين الأمة وبينهم[٦٧].

• ونسـيبة بنت كعب الأنصارية – أم عمـارة – (رضى الله عنها) (توفيـت فى ١٣هـ – ٦٤٣م) كانت ثمرة ناضجة متألقة من ثمرات هذا التحرير شـاركت فى بيعة العقبة الجمعية التأسيسـية للدولة الإسلامية الأولى، فمارست فى ظلال الإسلام وتحريره للمرأة قمة الولاية السياسية قبل أربعة عشـر قرنا، وشـاركت فى بيعة الرضوان – تحت الشـجرة – عـام الحديبية (٦ هـ – ٦٢٨م) «على الحرب والقتال» عندما شـاع أن قريشـا قتلت مندوب المسـلمين إليهم، عثمان بـن عفان. وكانت أم عمـارة ممـن أوفى بما عاهد عليه الله.. ففى يـوم أحد كانت ضمن أقل من عشـرة هم الذين صمدوا لجيش الشـرك فحموا رسول الله (صلى الله عليه وسـلم) من القتل.. ويومئذ رآها الرسـول وقد كسرت سنه وسالت دماؤه، وهى مشـمرة قد ربطت ثوبها على وسطها تقاتل دونه وتتصدى لابـن قميئـة الذى اندفع نحو الرسـول (صلى الله عليه وسـلم) قائلا: أيـن محمـد؟ لا نجوت إن نجا..! رآها الرسـول وهى تتلقى فى كتفها الطعنـة التى أراد ابن قميئة توجيهها إلى الرسـول.. وكانت أمها معها تعصب لها جراحها. وكان معها كذلك فى هذه الملحمة ابنها الذى نزف فعصبت نزيفه ثم اسـتنهضته للقتال. وعندما جرحت جرحها الغائر فى كتفها نادى الرسـول على ابنها: «أمك، أمك! اعصب جرحها، بارك الله عليكـم مـن أهل البيـت». ثم نادى على أحـد الفارين كى يعطيها ترسـه لتـترس به.. وقال لها فى إعجاب: «مـن يطيق ما تطيقين يا أم

عمارة؟!.. لقام نسيبة بنت كعب يوم أحد خير من فلان وفلان.. ما التفت يمينا ولا شمالا إلا وأنا أراها تقاتل دونى. «أما هى، التى غادرت أرض المعركة يومئذ وفى جسدها ثلاثة عشر جرحا فلقد قالت لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) «ادع الله أن نرافقك فى الجنة».. فقال (صلى الله عليه وسلم): «اللهم اجعلهم رفقائى فى الجنة»، فقالت: «ما أبالى بعد ذلك ما أصابنى فى الدنيا»[٦٨].

وعندما رجع الرسول القائد إلى المدينة، ذهب إلى بيتها ليعودها ويطمئن عليها قبل أن يذهب إلى بيته، وواصلت أم عمارة جهاد التحرير الإسلامى للمرأة المسلمة.. فذهبت إلى رسول الله(صلى الله عليه وسلم) محتجة على ما حسبته امتيازات للرجال على النساء، فقالت: يا رسول الله، ما أرى كل شىء إلا للرجال وما أرى النساء يذكرن بشىء!.

فنزل الروح الامين على قلب الصادق الأمين بالتنزيل الذى يقرن – فى صراحة اللفظ – النساء بالرجال: ﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّآئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾[٦٩].

• وأسماء بنت يزيد بن السكن الأنصارية (رضى الله عنها) (توفيت فى ٣٠هـ/ ٦٥٠م) كانت هى الأخرى واحدة من الكواكب اللاتى حررهن الإسلام فأضأن فى سماء تحرير المرأة المسلمة. شاركت مع أم عمارة فى

عقد تأسيس الدولة الإسلامية الأولى ببيعة العقبة (٢ق هـ - ٦٢٠م)؛ وشهدت يوم الفتح الأعظم (فتح مكة)، وقاتلت يوم اليرموك(١٥هـ-٦٣٦م) فى فتوحات الشام، وقتلت تسعة من الروم بعمود خيمتها؛ وكانت من ذوات الرأى والعقل والحكمة والدين، خطيبة فصيحة تهز أعواد المنابر إذا خطبت، وتقوم على تنظيم النساء المؤمنات، وتتزعم المطالبة بما لهن من حقوق، حتى لقد سميت فى كتب السُّنة والسيرة بـ «وافدة النساء»، أى رسولة وزعيمة النساء فى المطالبة بحقوقهن لأنها ذهبت إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وهو فى المسجد متحدثة باسم نساء المسلمين، فقالت: «أنا وافدة من خلفى من النساء يقلن بقولى وهن على مثل رأيى. إن الله قد بعثك للرجال والنساء. ولقد غلبنا عليك الرجال، فاجعل لنا يوما من نفسك، تعلمنا فيه». فوعدهن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يوما، لقيهن فيه، فوعظهن وأمرهن.. وروت عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أكثر من ثمانين حديثا[٧٠].

تلك مجرد إشارات لأمثلة من النماذج التى جسدت نوعية التحرير الذى أنجزه الإسلام للمرأة منذ فجر البعثة النبوية وإشراق شمس حضارة الإسلام. وإذا كانت هذه النماذج شاهدة شهادة صدق على نوعية التحرير ونموذجه، فإن الآفاق الواسعة التى بلغتها موجات هذا التحرير تشهد على عموم النعمة التى تمثلت فيه[٧١].

□□□

هوامش الفصل

(١) عبـد العاطى محمد أحمد – الفكر السياسـى للإمام محمد عبده – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٧٨م – صـ١٧١.

(٢) الإمام محمد عبده – الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده – تحقيق: د. محمـد عمارة – ج٤ – صـ ٦٥٤، وأيضا: د. محمد عمارة – الإسلام والمرأة فى رأى الإمام محمد عبده – صـ ١٤.

(٣) المصدر السابق –ج٤– صـ٦٧٧.

(٤) د. محمـد عمارة – الإسـلام والمـرأة فى رأى الإمـام محمد عبده – صـــ٥٢ وأيضا: الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده – دراسـة تحقيق: د.محمد عمارة – ج٤– صـ ٦٣٢.

(٥) محمـد عبده – رسـالة التوحيد – تحقيق د. محمـود أبو رية – دار المعارف – القاهرة – الطبعة السادسة – ٢٠٠٣ – صـ ١٣٨.

(٦) محمد عبده– الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده – تحقيق: د. محمد عمارة – ج١ – صـ ٣٦٨.

(٧) قاسم أمين – تحرير المرأة – الهيئة المصرية العامة للكتاب – بدون تاريخ – صـ ١٤٥.

(٨) قاسم أمين – تحرير المرأة – دار المعارف – القاهرة ـ١٩٧٠م– صـ ٩٩.

(٩) محمـد عبـده – مقال خطـا العقلاء فى الوقائـع المصرية – العدد ١٠٧٩ – ١٨٨١م الأعمـال الكاملة للإمام محمد عبده – تحقيق: د.محمد عمارة – ج١ – صـ ٣٢٤.

(١٠) محمد عبده – مقال الحياة السياسية – الوقائع المصرية – عدد١٢٥١ – سنة ١٨٨١م – الأعمال الكاملة – ج١ – صـ٣٦٥.

(١١) المصدر السابق – نفس الصفحة.

(١٢) محمد عبده – الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده – تحقيق: د. محمد عمارة – ج١ – صـ٣٦٨ – مقال الحياة السياسية – الوقائع المصرية – عدد ١٢٥١ – ١٨٨١م.

(١٣) المصدر السابق ـ صـ٣٧٠.

(١٤) المصدر السابق ـ صـ٣٦٨.

(١٥) محمد عبده – الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده – تحقيق: د. محمد عمارة – ج١ – صـ٣٦٧.

(١٦) المصدر السابق – صـ٣٦٩.

(١٧) محمد عبده – الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده – تحقيق: د. محمد عمارة – ج٤ – صـ٦٥٠ – ٦٥٥ ـ وأيضا: د. محمد عمارة – الإسلام والمرأة فى رأى الإمام محمد عبده – صـ٦٩.

(١٨) سورة البقرة ـ آية ٢٣٢.

(١٩) محمد عبده – الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده – تحقيق: د. محمد عمارة – ج٤ – نفس الصفحات ـ وأيضا: د. محمد عمارة – الإسلام والمرأة فى رأى الإمام محمد عبده – صـ٦٩–٧٠.

(٢٠) المصدر السابق – وأيضا: د. محمد عمارة – الإسلام والمرأة فى رأى الإمام محمد عبده – صـ٧٠ – ٧١.

(٢١) د. محمد عمارة – الإسـلام والمرأة فى رأى الإمام محمد عبده – صـ ٧٢، وأيضا: محمـد عبده – الأعمـال الكاملة للإمام محمد عبده – تحقيق: د. محمد عمارة – ج٤ – صـ٦٥٠ – ٦٥٥.

(٢٢) المرجع السابق ـ صـ٧٢.

(٢٣) سورة البقرة ـ آية ٢٣٢.

(٢٤) د. محمد عمارة – الإسـلام والمرأة فى رأى الإمام محمد عبده – صـ٧٣.

(٢٥) المرجع السابق – صـ٧٤.

(٢٦) المرجع السابق ـ صـ٧٥.

(٢٧) المرجع السابق – صـ٧٤.

(٢٨) المرجع السابق ـ صـ٧٤–٧٥.

(٢٩) محمـد عبده – الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده – تحقيق: د. محمد عمارة – ج٢ – صـ٧٥.

(٣٠) سورة البقرة ـ آية ٢٢٨.

(٣١) سورة النساء ـ آية ١٩.

(٣٢) سورة النساء ـ آية٢١.

(٣٣) أخرجه أبو داود، سنة (١٤)، وأحمد بن حنبل، المسند ٣/٣٥٠، ٤٧٣، ٥٣٧، ٥/٨٩، ٩٩، ٦/٤٧، ٩٩.

(٣٤) أخرجه أحمد بن حنبل، المسند ٣/١٢٨، ١٩٩، ٢٨٥، والنسائى، السنن كتاب عشرة النساء باب (١).

(٣٥) محمـد عبده – الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده – تحقيق: د. محمد عمارة – ج٢ – صـ ٧٥.

(٣٦) المصدر السابق – ج٢ – صـ ٧٦.
(٣٧) المصدر السابق – الصفحة نفسها.
(٣٨) المصدر السابق – ج٢– صـ٧٧.
(٣٩) د. عثمـان أمين – رائد الفكر المصرى – مكتبة الأنجلو –القاهرة – ط٢– بدون تاريخ – صـ٢٢٨.
(٤٠) محمـد عبـده – الأعمال الكاملة للإمام محمـد عبده – تحقيق: د. محمد عمارة – المؤسسـة العربية للدراسات والنشر – ١٩٧٢م – ج٢– صـ٦٨.
(٤١) المصدر السابق – ج٢ – صـ٧١.
(٤٢) محمد عبده – مقال حاجة الإنسان إلى الزواج – الوقائع المصرية – العـدد ١٠٥٥ – ١٨٨١م – د. محمد عمارة – الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده – ج٢ – صـ٦٨.
(٤٣) سورة الروم ــ آية ٢١.
(٤٤) سورة الروم ــ آية ٢١.
(٤٥) محمـد عبـده – الأعمال الكاملة للإمام محمـد عبده – تحقيق: د. محمد عمارة – ج٢ – صـ٧٢.
(٤٦) محمد رشيد رضا – تفسير المنار – ج٥ – صـ٨٠.
(٤٧) محمـد عبـده – الأعمال الكاملة للإمام محمـد عبده – تحقيق: د. محمد عمارة – ج٢ – صـ٧٢.
(٤٨) المصدر السابق– ج٢ – صـ ٧٢ – ٧٣.
(٤٩) المصدر السابق– ج٢– صـ ٧٤.
(٥٠) محمد عبده – تفسير المنار – ج٢ – صـ٣٩٨.

(٥١) محمـد عبـده – الأعمال الكاملة للإمام محمـد عبده – تحقيق: د. محمد عمارة – ج٢ – صـ٧٠.

(٥٢) المصدر السابق ـ الصفحة نفسها.

(٥٣) عبد العاطى محمد أحمد – الفكر السياسـى للإمام محمد عبده – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٧٨ – صـ ٢٧٩.

(٥٤) المصدر السابق ـ صـ ٢٧٩ – ٢٨٠.

(٥٥) قاسم أمين – المرأة الجديدة – مطبعة المعارف– القاهرة – ١٩٠٠م – صـ٩٩.

(٥٦) انظر د.عاطف العراقى – العقل والتنوير فى الفكر العربى المعاصر – دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر – الإسكندرية – ط٣– ٢٠٠٤م – صـ٢٢٥ وما بعدها.

(٥٧) د. عاطف العراقى – الشـيخ الإمـام محمد عبده والتنوير – قرن من الزمان على وفاته – دار الرشـاد – القاهرة – ط١ – ٢٠٠٧م صـ٢٩٥.

(٥٨) المرجع السابق ـ صـ ٢٩٨.

(٥٩) قاسم أمين – المرأة الجديدة – صـ٥٦.

(٦٠) د. محمد عمارة – التحرير الإسـلامى للمرأة للرد على شـبهات الغلاة – دار الشـروق – القاهـرة – ط١ – ١٤٢١هـ ٢٠٠٢م – صـ١٣.

(٦١) المرجع السابق – صـ ١٣ – ١٤.

(٦٢) المرجع السابق – صـ ١٤.

(٦٣) المرجع السابق – صـ ١٤.

(٦٤) المرجع السابق – صـ ١٤ – ١٥.
(٦٥) المرجع السابق – صـ ١٥.
(٦٦) المرجع السابق – صـ ١٦.
(٦٧) المرجع السابق – صـ ١٦ – ١٧.
(٦٨) المرجع السابق – صـ ١٧ – ١٨.
(٦٩) سورة الأحزاب ـ آية ٣٥.
(٧٠) د.محمـد عمارة ـ التحرير الإسـلامى للمرأة للرد على شـبهات الغلاة – صـ ١٩.
(٧١) المرجع السابق – الصفحة نفسها.

□□□